

شہیدؒ فی خیبرؒ

obeikandi.com



شَهِيدٌ فِي خَيْبَرَ-١:

عن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال: خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو القوم، ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا و لا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا
و ألقين سكينه علينا إنا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: " من هذا السائق؟ " فقالوا: عامر بن الأكوع.
فقال: " يرحمه الله "

فقال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به.

قال سلمة: فأتينا خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة...
(حديث صحيح أخرجه البخارى وآخرون.)

.....

هذه قصة نبوية تقدم لنا طرفاً من أحداث غزوة خيبر التي تكلفت بنصر الله للمسلمين بعد عناءٍ شديد، وقتال عنيف. والقصة يرويها سلمة بن الأكوع، وتضىء بعض الجوانب المهمة في طبيعة النفس الإنسانية، وهي تعمل، وتسافر، وتجاهد، وتقاوم الجوع، وتواجه العدو، وتصبر على المتاعب حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

و خيبر، مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، وتبعد عن المدينة ثمانية بُردٍ في اتجاه الشام، والبرد جمع بريد وهو مقياس من مقياس المسافات التي كانت معروفة في زمن البعثة المحمدية، ويساوى الآن حوالي عشرة أميال مع اختلاف في تقدير مسافته، ولكن المدينة تقع على بعد خمسة وتسعين كيلومتراً شرق المدينة؛ ومنطقة خيبر واسعة ترتفع عن سطح البحر بنحو خمسين وثمانمائة متر، وتضم

عدة قرى ومدن وتقع مدينة خيبر في وادي الزبدية أكبر وديان المنطقة ، وكان يسكنها اليهود في صدر الإسلام ..

وقد خرج إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شهر المحرم وحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر، وكان القرآن الكريم ، قد بشر النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد انصرافه من الحديبية، حيث نزلت عليه سورة الفتح بين مكة والمدينة ، وفيها قوله تعالى :-

"وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُم هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا"

(سورة الفتح الآية ٢٠)

والمقصود بهذه خيبر ، وقدم الرسول صلى الله عليه وسلم - المدينة في ذي الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر في محرم على الأرجح ، وكان ذلك عام سبعة من الهجرة النبوية .

كان المسير إلى خيبر بالليل ، حيث تتحقق مسألة تأمين الجيش ، وفي الوقت نفسه يفاجئ العدو الذي يبغى بالمسلمين شرّاً ، فتكون المفاجأة مؤثرة ، ولا يتمكن العدو من المواجهة الفعالة التي تردّ المهاجمين ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يُغير في الليل ، ولكنه كان يغير في الصباح ، لذا كان المسير في الليل أفضل بالنسبة للمجاهدين ، وكان عليهم أن يقطعوا الوقت بشيء يفيدهم ويقصر المسافة ، ويشبع وجدانهم وأفئدتهم ومشاعرهم .. ولم يكن غير الشعر ، أو الغناء الجماعي ، أى الإنشاد ، وهو ما اقترحه واحد من المجاهدين على عامر بن الأكوع ، حيث طلب منه أن يحدو بالقوم بشيء من هنيئاته ، أى قصائده وأشعاره ، فارتجز أبياته التي جاءت في مقدمة القصة النبوية .

والشعر هو فن العربية الأول ، وهو الغناء بالمعنى الراقي ، حيث يعبر عن مشاعر الأمة وأحاسيسها تجاه واقعها ، وماضيها ومستقبلها ، وهو سلاح من أسلحة الدعوة ، وبث الهمة والعزيمة ، وهو صياغة للوجدان العام في الاتجاه

الصحيح الذي يحضّ عليه الإسلام . لذا كان الانحراف به عن وظيفته الأساسية في تربية الأمة خلقيا وعقديا وشعورياً يمثل انحرافاً عن الخط السليم ، وقد عانى الرسول – صلى الله عليه وسلم – من شعراء الجاهلية الذين كانوا يوجهون إليه وإلى المسلمين قصائد الهجاء التي تنال منهم وتزرى بهم ، وقد حثّ الرسول – صلى الله عليه وسلم – شعراء الصحابة : حساناً وكعباً وعبد الله بن رواحة ، على الردّ عليهم ، والقصاص منهم ، وكان يقول لحسان : اهجم وروح القدس معك ، وقد نزلت الآيات الكريمة في آخر سورة الشعراء تشير إلى ذلك :

"وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٢٣٧﴾ وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٣٨﴾"

(سورة الشعراء : الآيات ٢٣٤-٢٣٧)

وأرجوزة عامر بن الأكوع ، تقدم لنا نشيداً إيمانياً بسيطاً وصادقاً ، يتحدث عن علاقة المسلمين بربهم سبحانه وتعالى ، فمنه الهدى والغنى والطاعة ، ولذا يطمع المسلمون في عفوه وغفرانه ، وتثبيتته لهم يوم الزحف والقتال ، حتى يحققوا النصر على الأعداء ويبسطوا عزة الإسلام على الأرض ، و يقيموا العدل في كل مكان ، بفضل الله تعالى ، ثم بجهادهم ونصرتهم لدينه .. وهم يرجون أن يلقى الله عليهم السكينة والطمأنينة حتى يواجهوا عدوهم بثبات و يقين ، فهم حريصون على تلبية نداء الجهاد، والامتناع عن طرق الانحراف والضلال، ولكنهم مع إغاثة المظلوم والضعيف وطالب النصرة إذا استنجدهم ، أو صاح عليهم ، لأنهم أهل مروءة وشهامة .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
و لا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
و ألقين سكينه علينا
إننا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

شَهِيدٌ فِي خَيْبَرَ-٢

يشير سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - إلى ما أصاب المسلمين من مخمصة وهم فى طريقهم إلى فتح خيبر، وحين أمسى الناس يوم فتحت عليهم، أو قدوا نيراناً كثيرة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: ما هذه النيران، على أى شىء، توقدون؟ " قالوا: على لحم: قال: على أى لحم؟! "

قالوا: على لحم حمر الإنسية: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "أمر يقوها و اكسروها"، قال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها؟ قال: "أو ذاك".

قال سلمة: فلما تصافّ القوم، كان سيف عامر فيه قصر، فتناول به يهوديا ليضربه، ويرجع ذباب سيفه، فأصاب ركبة عامر، فمات منه، فلما قفلوا، قال سلمة: رأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاحباً. فقال لى: "مالك؟"

قلت: فدى لك أبى و أمى. زعموا أن عامراً حبط عمله!
قال: "من قاله؟"

قلت: قاله فلان، و فلان، و فلان، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم: "كذب من قاله، إن له لأجرين".

وجمع بين إصبيعيه: "إنه لجاهدٌ مجاهد، قلّ عربيّ نشأ بها مثله".

.....

كان المسلمون يسيرون إلى خيبر، وقد استمتعوا بأرجوزة عامر بن الأكوع:
" اللهم لولا أنت ما اهتدينا " وهو ينشدها حاديا الركب المجاهد، ويبدو أن حسن أدائه وشعره، قد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم - يسأل عن الحادى أو السائق الذى يقود الركب بهذا الإنشاد الجميل، فذكروا له أنه عامر بن الأكوع"، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - "يرحمه الله"، وهو دعاء يعنى أن صاحبه سيموت شهيداً. وهو ما عبر عنه رجل من المسلمين حين قال: "وجبت يا نبى الله ..

لولا أمتعتنا به " أى هلاً أبقيته لنا لنتمتع به ، أى بشجاعته التى يعبر عنها من خلال إنشاده و حدائه ..وبقى عامر ليكون شهيداً كما تخبرنا القصة فيما بعد ..

فى مساء يوم الفتح ، كان المسلمون يوقدون النار ليطبخوا لحم حمر إنسية نتيجة الجوع أو الخمصة التى أصابتهم ولما رآهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- سألهم عما يطبخونه و يوقدون عليه النار . فقالوا: على لحم . فسأل: "على أى لحم؟! ، قالوا :على لحم حمر الإنسية فقال رسول - صلى الله عليه: " أهر يقوها و اكسروها " مما يعنى أنها محرمة الأكل ، أو غير جائزة ، ولا يتناولها مسلم ، وللحمر الإنسية أحكام فى فقه الذبائح تتحدث عن حرمتها..

وعندما سمع المسلمون أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإهراق الأوانى ، أى سكبها على الأرض، و تكسير الأوانى التى كانت تطبخ فيها، قال رجل: يا رسول الله ، أو نهريقها ونغسلها ؟ إن الرجل رأى أن سكب الأوانى ثم غسلها يكفى . وهو ما وافق عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : " أو ذاك " أى الإهراق والغسيل .

وعندما تلاقى الفريقان ؛ المسلمون وأهل خيبر ، كان لعامر بن الأكوع ، حادى العيس بنشيدده شجى ، حكاية أخرى أدت إلى استشهاده كما أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- . فقد تقدم لمبارزة زعيم خيبر، وكان شخصاً ضخماً ، وكان فى سيف عامر قصر ، أدى إلى استشهاده .. إن سيف عامر لم يستطع أن ينال من خصمه، فارتد حده عليه وقطع أعلى ركبته ، مما أدى إلى وفاته ، فظنّ فريق من الصحابة أن عامر بن الأكوع قتل نفسه ؛ وتناقلوا هذا الظن ، حتى لا حظ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن سلمة بن الأكوع - روى القصة - شاحب اللون ، يبدو عليه التأثر والأسى ، فسأله عما به ، فقال سلمة : فدى لك أبى وأمى ، زعموا أن عامراً حبط عمله !

وهنا سأله الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - عمّن قال ذلك ؟ أى من قال إنه خسر جهاده ، ولن تقبل منه التضحية فى سبيل الله والإسلام .. ويخير سلمة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بمن قالوا ذلك وتحدثوا به .. ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - يردّ بقوة على هذه الفرية: كذب من قاله إن له لأجرين .

إن تكذيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمن حكموا بغير دليل ، وأفتوا بغير علم ، يشير إلى ضرورة التثبت قبل الحكم ، والفهم قبل الفتوى ، حتى لا تحدث بلبلة ، ويتقاعس المسلمون عن فعل الخير والتضحية فى سبيل الله .

عامر بن الأكوع له أجران ، وليس أجر واحد ، والذين تقوّلوا عليه ظناً منهم أنه تسبّب فى قتل نفسه " كاذبون " بمعنى " مخطئون " فى حكمهم أو استنتاجهم ، لأن سيف عامر هو الذى قصّر فى مهمته لأنه قصير ، ولو أنه أصاب خصمه " مُرحباً " لقضى عليه ، ولكن الرجل تفادى الضربة ، فارتد السيف على صاحبه عامر فأرداه ، وتحققت الشهادة التى بثّربها الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وهى الشهادة التى أكدها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله " إن له لأجرين " .

وجمعه بين إصبيعيه قائلاً : " إنه لجاهدٌ مجاهد ، قلّ عربىُّ نشأ بها مثله " ، وهذا وصف عامراً فى ذروة الجهاد والمجاهدين ، ويصفه بالندرة أو القلّة التى تشبهه فى جهاده وتضحيته ، فالرجل لم يقتل نفسه ، ولم ينتحر كما تصور البعض ، والانتحار حرام كما نعلم ولكن السيف القصير كان هو السبب فى مصرعه لأن الخصم تفاداه .. فالشهادة هنا جاءت فى سياق المبارزة التى سبق فيها قضاء الله ، ليحقق الشهادة لمجاهد نادر فى إيمانه وشجاعته وإخلاصه .